في المصطلح النقدي ومجالاته الدلالية

في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي

د. موسى شرولنة

جامعة قسنطينة1

الملخص:

يعتبر كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي أول كتاب في النظرية النقدية والجمالية عند العرب. ويرتبط بهذه النظرية الكثير من المصطلحات هي على درجة من الأهمية في تشكيل الوعي بها. وبالنظر إلى الأهمية التي تكتسيها هذه المصطلحات، وأنها لم تعالج بطريقة علمية وبصورة دقيقة وشاملة، فقد وقع الاختيار عليها لتكون إسهاما في مشروع شامل يهدف إلى تأسيس معجم اصطلاحي للنقد العربي . ولما كانت هذه المادة الاصطلاحية كثيرة ومتنوعة، فقد اقتصرت هذه الدراسة على رصد نماذج منها، ومحاولة تحليلها، والكشف عن أبعادها الدلالية بالمنهج اللغوي المعاصر، على أمل أن يستكمل ما تبقى منها.

مقدمـــــــة:

يعترف كثير من العرب والأجانب المختصين في دراسة الحضارات واللغات في العالم أن اللغة العربية تعد من بين اللغات الغنية بألفاظها وتعبيراتها، إن لم تكن أغنى هذه اللغات، وأكثرها ثراء، ويشهد على ذلك ما يتوفر لديها من معاجم تحتوي على الآلاف من الكلمات والمواد اللغوية مثل لسان العرب لابن منظور الذي يضم أكثر من ثمانين ألف مادة لغوية، ويفوق هذا العدد ما يضمه تاج العروس للزبيدي. ومع هذا، فإن الدارس اليوم يشعر بنوع من النقص حين تعترضه عشرات بل مئات من الكلمات ولا يجد بين يديه وسيلة ممكنة وسهلة تمكنه من التعرف على مفهومها، وخصوصا فيما يتعلق بدراسة الأدب العربي القديم ونقده. ومن هنا تأتي الحاجة الملحة إلى العناية بهذا الجانب. وقد كتب فيه الكثير ولكن ما كتب لا يمثل إلا نقطة في بحر. ويعد كتاب طبقات فحول الشعراء لابن

سلام الجمحي (ت 231هـ) من بين المصادر المهمة في تاريخ النقد القديم، وتشكل المصطلحات النقدية الكثيرة والمتنوعة الواردة فيه عقبة في فهمها، وفهم القضايا النقدية المرتبطة بها، ومع ذلك فهي مازالت تنتظر من يدرسها ويوضحها بطريقة منهجية وعلمية. ومنذ مدة بدأت العناية باستقراء هذه المادة الاصطلاحية ومحاولة دراستها لتكون، في النهاية، إسهاما متواضعا في نواة للمعجم التاريخي الذي تحلم به كثير من الدوائر العلمية والثقافية. وتحقيقا لهذه الغاية ولغايات واعتبارات أخرى يمكن إجمالها في الآتي، وقع الاختيار على هذا الكتاب:

1) أنه أول كتاب في تاريخ النقد العربي القديم.

2) أنه كتاب موسوعي، حيث يضم بين دفتيه مادة اصطلاحية كثيرة وغنية جديرة بالدراسة والبحث لتكون مدخلا لفهم القضايا النقدية والجمالية التي يطرحها.

3) أن المادة الاصطلاحية الواردة فيه لم تدرس حتى الآن دراسة شاملة، وبالشكل الذي نقترحه لها.

- **منهج الدراسة:**

وما سوف نقدمه في هذه الدراسة الموجزة، لا يمثل إلا نماذج أو عينات يسيرة مما رصدناه، ونتوخى من خلالها أن نتلقى الرضا والتشجيع لمواصلة الجهد لتقديمها كلها . وقد اتبعنا الخطوات التالية في دراستها وتحليلها:

1) تصنيف المصطلحات المرصودة تحت مجالات دلالية.

2) البداية بتحديد المعنى اللغوي للمصطلح، ثم محاولة إيجاد العلاقة بين المعنيين: اللغوي والاصطلاحي؛ وذلك لإدراك التطور الحاصل بينهما.

3) الاعتماد على النصوص في استنباط دلالة المصطلح أو تحديد مفهومه مع محاولة ربطه بالعوامل الفاعلة فيه.

أما المجالات التي رصدناها، بصفة مبدئية، فقد حصرناها في الآتي:

أ. مصطلح النوع

ب. مصطلح الإيقاع

ج. مصطلح الصياغة

وسيأتي الحديث عنها تباعا فيما يلي:

أ- مصطلح النوع:

✓ الضـــــرب:

تدل كلمة الضرب في اللغة على معان عديدة. بعضها يبدو قريبا من المعنى الاصطلاحي وبعضها يبدو بعيدا. ومن المعاني التي تدل عليها أنها تعني (الصفة) وكذلك (المثل والشبيه). ولعل أقربها إلى الاصطلاح هو (الصنف) فيقال: الضرب: الصنف من الأشياء. ويقال هذا من ضرب ذلك أي من نحوه وصنفه. والجمع ضروب[1]» ، لأنها جاءت بمعنى غرض من أغراض الشعر المعروفة عند العرب، وهي المدح، والهجاء، والرثاء، والغزل ما إلى ذلك. وهذه الأغراض تتضمن الصنف الذي ينحدر من الشعر أو يشتق منه، وقد وردت عند ابن سلام بصيغة الجمع (ضروب) ولكنها منسوبة إلى بشار بن برد (ت 167هـ)، وكان ابن سلام قد سأله عن رأيه في الشعراء الثلاثة: جرير، والفرزدق، والأخطل فقال له:« لم يكن الأخطل مثلهما، ولكن ربيعة تعصبت له: وأفرطت فيه. فقلت: فجرير والفرزدق؟ قال: كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق وفضل جريرا عليه».[2]

ووردت أيضا في موضع آخر من الكتاب منسوبة إلى بشار، غير أنه أضاف إليها في هذا الموضع ما يزيد من توضيح معناها حيث قال: « ولقد ماتت النّوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير»[3]. ومعنى هذا أن الفرزدق لم يكن يحسن الرثاء ولذلك عندما ماتت زوجته (النوار) طلب إلى جرير أن يرثيها نيابة عنه فرثاها. وهذا هو سبب تفوق جرير عليه. ولئن كان الفرزدق يجيد الفخر، والهجاء، فهو لا يجيد بعض الأغراض الشعرية منها الرثاء.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، طبع دار المعارف(د.ت) مادة (ضرب).

(2) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة (د.ت) ج1 ص 374.

(3) المصدر نفسه ج1 / ص 456 .

والغزل. ومن ثم كان التنويع في الأغراض الشعرية دالا على القدرة. وهذه كانت لجرير على الفرزدق وعلى غيره.

✓ فنون الشعر:

هذا مصطلح مركب من كلمتين هما: (فنون) و(الشعر). ويعتبر هذا التركيب الثنائي شكلا من الأشكال التعبيرية التي عرفها النقد القديم في صياغة مصطلحه. وكلمة (فنون) جمع فن ومعناه في اللغة (الضرب من الشيء) [1]. ولما كانت هذه الكلمة تعني الضرب أو النوع بصفة عامة فقد أضيفت إلى الشعر للتعبير بها عن معنى آخر هو (الغرض) أو (الأغراض) لأن للشعر أغراضا معروفة عند العرب مثل المدح، والهجاء، والغزل، وما إلى ذلك. وقد ذكر هذا المصطلح مرتين في كتاب ابن سلام. ففي الأولى جاء في سياق الحديث عن الأعشى حيث قال: « قال أصحاب الأعشى: وهو أكثرهم عروضا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا، وهجاء، وفخرا، ووصفا، كل ذلك عنده »[2].

أما في الثانية فقد جاء أثناء الحديث عن كثير عزة، والموازنة بينه وبين جميل بثينة الذي كان متقدما عليه، حيث قال: « وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر، وجميل متقدم عليه، وعلى أصحاب النسيب جميعا في النسيب، وله في فنون الشعر ما ليس لجميل »[3].

وما يريد أن يقوله ابن سلام في هذا الكلام هو أن جميلا كان يتفوق على كثير في النسيب، أما كثير الذي كان راوية لجميل، فقد كانت لديه أغراض شعرية يتفوق بها على أستاذه جميل.

ويذكر ابن سلام أيضا أن كثيرا كان يحظى بشهرة واسعة في الحجاز، وكان يتفوق على بعض الشعراء ممن اشتملت عليهم طبقته. ويشهد له بتفوقه في المديح، ويقول عنه

---

(1) ابن منظور: المصدر السابق مادة (فن).

(2) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 /ص 65 .

(3) المصدر نفسه جـ2 / ص545 .

في هذا: «رأيت ابن أبي حفصة يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح»[1] وهذا يعزز المفهوم السابق للمصطلح.

ب- مصطلح الإيقاع:

✓ العـــــــروض:

كلمة العروض ليست من الكلمات الغريبة حتى نفيض في شرحها، فهي معروفة عند أهل العروض، ولكنها تجاوزت عند ابن سلام هذا المعنى المعروف، إلى معنى آخر جديد. ولهذا وجب أن نعرض لها في كتابه. وقد وردت عند ابن سلام ثلاث مرات:

الأولى: كانت بمعنى ميزان الشعر. ويتضح لنا هذا المعنى من قوله عن النابغة الذبياني، وعن الشعر بوجه عام: «والشعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي»[2]. فالعروض هنا، كما سبق القول، يعني به العلم الذي يوزن به الشعر ولذلك قال: «والشعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي». وكأنه يشير بهذا الكلام إلى أن النابغة كان يُقوي وهو مطالب بأن يكون على دراية بعلمي العروض والقافية، إلى جانب الإلمام بقواعد البناء الأخرى للشعر.

أما الثانية: فقد جاءت بمعنى أوزان الشعر، في سياق الحديث عن الأعشى، حيث قال: «وقال أصحاب الأعشى: هو أكثرهم عروضا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده»[3]. فقولـــــــه: «هو أكثرهم عروضا » يعني أنه كان يقول الشعر على أوزانه المعروفة التي اكتشفها الخليل بن أحمد، وبلغ عددها خمسة عشر وزنا والدليل على ذلك أن ابن سلام ذكر أن الأعشى كان كثير الشعر، وإكثاره منه جعله معرضا لأوزان عديدة. ولعل قوله عنه بأنه كان يتميز (بفنون الشعر) يؤكد ما ذهبنا إليه في مفهوم المصطلح.

أما في المرة الثالثة: فقد استعمل بمعنى مغاير لما سبق. وسيكون له حديث آخر ضمن هذه الدراسة.

---

(1) المصدر نفسه جـ2/ص 540 .

(2) المصدر نفسه جـ1/ ص 56 .

(3) المصدر نفسه جـ1/ ص 65 .

والخلاصة أن كلمة العروض عند ابن سلام كانت تستخدم بمعان عديدة، وما عرضناه لها ينحصر في معنيين:

الأول: ميزان الشعر

الثاني : أوزان الشعر

✓ **الجـــــزء:**

الجزء معناه في اللغة « القطعة من الشيء »[1]. بوجه عام دون تحديد. أما في الاصطلاح فقد انحصر معناه بإطلاقه على ما يعرف في العروض بالتفعيلة، وهي الوحدة الوزنية الأساسية للبيت. وهذا هو المفهوم الذي جاء به عند ابن سلام وهو يتحدث عن عيوب الشعر حيث قال: « والزحاف أهونها، وهو أن ينقص الجزء من سائر الأجزاء فينكره السمع ويثقل على اللسان»[2]. فالجزء هنا بمعنى التفعيلة، والأجزاء معناها التفاعيل أو التفعيلات التي يبنى عليها الشعر، والزحاف يتمثل في إنقاص الجزء أو التفعيلة. وعادة ما يكون هذا النقص في نهاية الجزء أو التفعيلة، وعلى وجه التحديد في الحرف الثاني الواقع في نهاية الجزء أو التفعيلة. ولذلك عبر عنه بصيغة الجمع ثواني الأسباب لأن هذه الأسباب هي التي يلحقها العيب أو النقص. وهو مقبول أو جائز إذا وقع مرة واحدة أما إذا تكرر فإنه يعتبر عيبا مشينا. ولهذا حرص ابن سلام على أن يعبر عنه بالمفرد بقوله "وهو أن ينقص الجزء" مستثنيا إياه عن سائر الأجزاء.

ومن الواضح هنا أن المصطلح جاء بصيغة المفرد والجمع. وهذا هو الاستخدام الذي عرف عند بعض العروضيين الأوائل مثل الأخفش الأوسط وغيره. ولا جديد فيه عند ابن سلام . وهذا يدل على أن ابن سلام كثيرا ما يأخذ المصطلحات كما هي دون أن يضيف إليها شيئا. وليس من شك في أن هذا يعد جانبا إيجابيا لأنه حافظ فيه على وحدة المصطلح، وعلى وحدة المفهوم، ولكنه يعد سلبيا من الجانب الآخر لأنه كرس به تعدد المصطلح. ومن المعروف أن هذا التعدد يخلق قدرا من البلبلة في عملية التواصل.

---

(1) ابن منظور: المصدر السابق (جزأ).

(2) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 / ص 68.

وقد كان في الإمكان الاكتفاء بمصطلح التفعيلة بدلا منه وهو مصطلح شائع ومعروف إذا ما قيس بمصطلح الجزء. وقد أشرنا إلى هذا في أكثر من موضع. ونبهنا إلى أنه يخالف شروط المصطلح. ومن أهم هذه الشروط قضية الشيوع والتوحد في الاستخدام.

✓ **الزحـــــاف:**

الزحاف في اللغة معناه المشي فيقال: «الزحف المشي، قليلا قليلا والصبي يتزحف على الأرض»[1]، ويطلق أيضا على المرض الذي يصيب البعير فيضعف قدرته على المشي[2]. وهذا المعنى هو الأقرب إلى الاصطلاح لما بينهما من المشابهة؛ لأنه أطلق في الاصطلاح على العيب أو النقص الذي يلحق موضعا معينا من بناء الشعر وهو ثواني الأسباب كما يقول العروضيون. وقد ذكره ابن سلام ضمن حديثه عن عيوب الشعر الأربعة التي نسبها إلى أستاذه يونس بن حبيب، وجاء فيها: «عيوب الشعر أربعة: الزحاف، والسناد، والإقواء، والإيطاء، والإكفاء وهو الإقواء»[3]. وقد عرفه ابن سلام بقوله: وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء"[4]، ومعنى هذا الكلام أن الزحاف يكون في الجزء الأخير من التفعيلة. أي في الأسباب وليس في الأوتاد لأن الأسباب ضعيفة والأوتاد قوية. وإذا شئنا الدقة قلنا إنه يقع في ثواني الأسباب أي في الحرف الثاني للسبب. والسبب نوعان: خفيف وثقيل. فالخفيف يتكون من حركة وسكون(/0)أما الثاني فيتكون من حركتين (//).

هذا من حيث المفهوم أما من حيث إنه عيب فذلك أمر لا خلاف عليه. ولذلك قال عنه ابن سلام إنه عيب وهو يدرك عن طريق السمع والقراءة كما جاء في قوله: «فينكره السمع ويثقل على اللسان »[5]، ومع ذلك فهو مرخص به ولكن في حدود ضيقة ولذلك قال عنه: (وهو جائز)[6]، وقد شبه بعضهم جوازه بالرخصة في الفقه أو بالقَبَل

---

(1) ابن منظور: المصدر السابق مادة(زحف).

(2) المصدر نفسه مادة (زحف) .

(3) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 /ص 68.

(4) المصدر نفسه جـ1 / ص 68 .

(5) المصدر نفسه جـ1 / ص 68 .

(6) المصدر نفسه جـ1 /ص 68 .

والخَوَل في الجارية والوَضَح في الخيل. وجميعها كصفات تستحب إذا كانت قليلة أما إذا كثرت سمجت واستقبحت[1]. وابن سلام يسير في هذا مع الخليل بن أحمد ومع الذين جاءوا بعده من علماء العروض.

ولما كان الزحاف يقع في الأجزاء أو في ثواني الأجزاء وهي التفاعيل، فإنه يكون في بعض الأجزاء خفيا ويكون في بعضها ظاهرا. والأول أهون من الثاني، وفي هذا يقول: «والأجزاء مختلفة فمنها ما نقصانه أخفى، ومنها ما نقصانه أشنع. قال الهذلي:

لَعلَّكَ إمَّا أمُّ عَمْرٍ وتَبدَّلَتْ سِوَاكَ خَلِيلًا شَاتِمي تَسْخِيرُها

فهذا مزاحف في كاف (سواك) وهو خفي، ومن أنشده:

لَعلَّكَ إمَّا أمُّ عَمْرٍ وتَبَدَّلَتْ خَلِيلاً سِوَاكَ شَاتِمي تَسْخِيرُها

فهذا أفظع، وهو جائز»[2]

✓ **الإقـــــواء:**

الإقواء مأخوذ من مادة (قوي) فيقال: « أقوى الفاتل الحبل إذا جعل إحدى قوتيه قوية والأخرى ضعيفة»[3]، وقد نقل هذا المعنى على المشابهة، فأطلق على المخالفة الصوتية أو الإعرابية في نهاية حرف الروي. ولذلك قال بعضهم في تعريفه : هو اختلاف حركة الإعراب في القوافي. ويقصدون بذلك الاختلاف في الحركات الأخيرة في الشعر كأن تكون ضمة في بيت، وكسرة في آخر. بهذا المعنى استخدم ابن سلام مصطلح الإقواء بصيغة الفعل المضارع المجزوم، وهو بصدد الحديث عن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين، فقال:" لم يُقْوِ من هذه الطبقة ولا من أشباههم إلا النابغة في بيتين قوله:

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتَدي عَجْلانَ ذا زادٍ وغَيرَ مُـــزَوَّدِ

زَعَمَ البَوَارِحُ أنَّ رحلتنا غَـــدًا وَبذاكَ خَبَّرنا الغُدافُ الأَسْـــوَدُ

---

(1) المصدر نفسه جـ1 / ص 70..

(2) المصدر نفسه جـ1 /ص 68، 69 .

(3) ابن منظور : المصدر السابق مادة (قوي) .

وقوله:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهَ فَتَنَـــاوَلَتْهُ وأَتَـــقَتْنا بِالـــيَدِ

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَـــانَه عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْـــقَدِ[1].

ويواصل كلامه فيقول:« فقدم المدينة، فعيب ذلك عليه، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه إياه في غناء، فقالوا للجارية: إذا صرت إلى القافية فرتلي. فلما قالت: (الغداف الأسود) و(يعقد) و(باليد) علم وانتبه، فلم يعد فيه. وقال: قدمت الحجاز وفي شعري ضعة، ورحلت عنها وأنا اشعر الناس»[2].

والمقصود بكلمة (ضعة) الخطأ أو العيب. وهذا اعتراف منه بأنه تعلم من الخطأ الذي وقع فيه دون أن يدري. ولذلك قال: (ورحلت عنها وأنا أشعر الناس) بمعنى أنه لن يعود إليه مرة أخرى، وقد ختم ابن سلام حديثه عن الإقواء عند النابغة بما قاله أستاذه يونس بن حبيب (ت 182 هـ) عن الإقواء وعن بقية العيوب فقال: «قال يونس: عيوب الشعر أربعة: الزحاف، والسناد، والإقواء، والإيطاء، والإكفاء، وهو الإقواء »[3]، وهذه العيوب شائعة في كتب العروض والقافية ولا يكاد يخلو منها كتاب من كتب النقد القديم، مع اختلافات يسيرة في الرواية.

✓ الإكفـــاء:

الإكفاء مشتق من مادة (كفأ) فيقال: «كفأ الشيء والإناء قلبه» [4]، و« كفأت الإناء كببته»[5]، و«إكفاء الشيء إمالته»[6]، ولهذه المادة وما اشتق منها معان أخر، ولكن ما ذكرناه لها من معان هو الأقرب إلى الاصطلاح وذلك لوجود مشابهة بينهما. وهو في الاصطلاح يعني المخالفة في إعراب القوافي كأن تكون قافية في قصيدة مرفوعة، وأخرى مجرورة

---

(1) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 /ص 67 68 .

(2) المصدر نفسه جـ1 /ص 68 .

(3) المصدر نفسه جـ1/ ص 68 .

(4) ابن منظور: المصدر السابق مادة (كفأ) .

(5) المصدر نفسه مادة (كفأ) .

(6) المصدر نفسه مادة (كفأ) .

أو منصوبة. وهذا هو المعنى الذي جاء به عند ابن سلام في قوله: «والإقواء هو الإكفاء، مهموز، وهو أن يختلف إعراب القوافي، فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة»[1].

ويبدو للناظر من هذا التعريف أن ابن سلام يتحدث عن الإقواء وليس عن الإكفاء، وهذا صحيح، ولكن ابن سلام لما كان لا يفرق بين الإقواء والإكفاء، فقد اعتبر حديثه عن الإقواء يغنيه عن الحديث عن الإكفاء. وقد تأثر فيه بما نقله عن أستاذه يونس بن حبيب الذي يرى أن الإقواء لا يختلف عن الإكفاء . وما نقله عنه هو بنصه: «قال يونس: عيوب الشعر أربعة: الزحاف، والسناد، والإقواء، والإيطاء، والإكفاء وهو الإقواء»[2].

وما ذهب إليه يونس بن حبيب وابن سلام من اعتبار الإكفاء هو الإقواء، ولا فرق بينهما، يخالف معظم آراء المعاصرين لهما، ومنهم الخليل بن أحمد، والأخفش الأوسط، ليس في اعتباره عيبا، وإنما في اعتباره عيبا يختص بالحركات مثل الإقواء وليس بالحروف. ولعل من أوضح الأمثلة على هذا ما نقل عن الخليل نفسه حيث قال في تعريفه: « سميت الإكفاء ما اضطرب حرف رويه فجاء مرة نونا ومرة ميما، ومرة لاما، وتفعل العرب ذلك لقرب مخرج الميم من النون»[3].

وإذا كان الإكفاء يرادف الإقواء فلماذا هذا التعدد، إذن، في المصطلح، وما هو مسوغه العلمي؟ كان يمكن الاكتفاء بمصطلح واحد منها إما الإقواء أو الإكفاء تفاديا لما يمكن أن يحدثه هذا التعدد من مشكلة في عملية التواصل.

✓ السنـــــاد:

الربط بين الدلالة اللغوية والاصطلاحية للسناد يكاد يكون مستحيلا لأن الدلالة اللغوية التي تمثل الأصل تبدو بعيدة من حيث المشابهة. ذلك أن السناد في معناه اللغوي يفيد ما يعتمد عليه ويدعمه أو يقف إلى جانبه. وهذا المعنى نستشفه من مادة (سند) فيقال: «سند الشيء جعله سنادا أو عمادا يستند إليه»[4]، ومع هذا فإن اللغويين والعروضيين اتفقوا على أن

---

(1) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 /ص 71 .

(2) المصدر نفسه جـ1/ ص68.

(3) المرزباني: الموشح، تحقيق محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت)/ ص13 .

(4) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز مادة (سند) .

كلمة السناد جاءت من قولهم: «خرج بنو فلان متساندين»[1]، بمعنى أنهم غير متفقين. وطبقوا هذا المعنى على السناد بالمعنى الاصطلاحي. وبذلك وجدوا الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي وهي هنا قائمة على المشابهة، وهي المخالفة أو عدم الاتفاق غير أن هذا يفيد العموم لأنه يصدق على أي شيء، ولكن حين دخل الاصطلاح انحصر معناه وذلك بإطلاقه على اختلاف القوافي في القصيدة الواحدة. ويعد هذا الاختلاف عيبا، ولذلك عده ابن سلام كذلك فيما رواه عن استاذه يونس بن حبيب حيث قال:« قال يونس: عيوب الشعر أربعة: الزحاف، والسناد، والإقواء والإيطاء، والإكفاء هو الإقواء»[2]

ويفيدنا حديث يونس بن حبيب عن السناد بجانب واحد منه فقط وهو أنه أحد عيوب الشعر الأربعة، دون تحديد دقيق، ولذلك حرص ابن سلام على توضيحه بالأمثلة في قوله: «والسناد: وهو أن تختلف القوافي نحو (نقيب) و(عيب) و(قريب) و(شيب)»[3]. ويبدو أن بعض ما جاء في هذا الكلام غير واضح أيضا وهو ما يجعلنا نتساءل هل العيب يكمن في الحرف أم في الحركة فيما ذكره من أمثلة؟ وهنا نجد ابن سلام يجيب عن تساؤلنا بالحديث عن الحروف وليس على الحركات. وإذا عدنا إلى الأمثلة السابقة لمعرفة الحروف التي يقصدها وجدنا أن حرف القاف في كلمة (نقيب) وكذلك حرف القاف في كلمة (قريب) مختلفة عنها في كلمة (عيب) و(شيب) على التوالي. وللتوضيح أكثر فإن مخارجها بعيدة عن بعض. وحتى من ناحية الوزن تبدوان كذلك. فالأولى على وزن (فعيل) والثانية على وزن (فيعل) وكذلك في (قريب) و(شيب). ويرى ابن سلام أن الوقوع في مثل هذه الأخطاء أو العيوب شائع حتى بين الشعراء الكبار، ويقول في هذا :« وقد تخلط مقاحيم الشعراء وثنياهم ... فيغلطون في السين، والصاد، والميم، والنون، والدال، والطاء، وأحرف يتقارب مخارجها من اللسان»[4].

---

(1) أبو الحسن الإربلي: كتاب القوافي، دراسة وتحقيق: عبد الحسن فراج القحطاني. الشركة العربية للنشر والتوزيع ط 1 1997/ ص 180.

(2) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1/ ص68 .

(3) المصدر نفسه جـ1 / ص75. .

(4) المصدر نفسه جـ1/ ص 79 80. .

وبهذا يقطع ابن سلام بأن السناد عيب، وهو يبدو في اختلاف القوافي في الحروف وليس في الحركات. وهو بهذا يخالف الخليل وتلميذه الأخفش في اعتباره حركة وليس حرفا. على أن هناك من يعتبره حرفا، منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي كان معاصرا لابن سلام الجمحي . ولكن أغلب الآراء تذهب إلى اعتباره حركة. وقد فصلنا هذا في موضع آخر ولا نريد أن نعيده هنا.

✓ **الإيطـــــاء:**

الإيطاء مشتق من مادة (وطأ) فيقال: «وطيء الشيء يطأه وطئا: داسه»[1]، ومنه الوطء: موضع القدم «ومنه جاءت المواطأة : الموافقة»[2]. هذا هو المعنى اللغوي وهو معنى عام غير محدد بشيء. ومن هذا المعنى العام انتقل إلى الاصطلاح، على سبيل المشابهة: فخصص معناه بإطلاقه على اتفاق قافيتين في قصيدة واحدة كما جاء عند ابن سلام في قوله: «وهو أن تتفق القافيتان في قصيدة واحدة »[3]. ومعنى هذا الكلام أن الأصل في قافية القصيدة، ألا تكون متفقة مع غيرها. وإذا حصل اتفاق بينهما، فإن ذلك يعتبر عيبا. وابن سلام يتفق في هذا مع أستاذه يونس بن حبيب في عد الإيطاء من عيوب الشعر الأربعة بقوله: «عيوب الشعر أربعة: الزحاف، والسناد، والإقواء، والإيطاء، والإكفاء وهو الإقواء»[4].

هذا هو الموقف العام من الإيطاء عند ابن سلام وعند استاذه وهو يخالف به بعض علماء العروض والقافية. على أن ابن سلام عاد مرة أخرى ليستدرك بعض ما قاله، ويضع شروطا للإيطاء هي [5]: أن الإيطاء لا يجوز للشاعر المولد أن يقع فيه وهذا واضح من قوله: «لا يجوز لمولد إذ كان عنده عيبا» أنه يجوز للشاعر البدوي أن يقع فيه إذا جاء على النحو التالي:

---

(1) ابن منظور: المصدر السابق مادة (وطأ) .

(2) المصدر نفسه مادة (وطأ).

(3) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 / ص 72، 73 .

(4) المصدر نفسه جـ1/ ص 68 .

(5) المصدر نفسه جـ1 / ص 72 .

اتفاق اللفظ واختلاف المعنى، نحو قولك:« (محمد) وتريد به الاسم و(جواد محمد) تريد الفعل، وتقول: (خيار)تريد: خيار من الله. وتقول:(خيار) أي خيار من قوم، فيجوز. ونحو هذا كثير، وأهل البادية لا ينكرونه»[1].

والخلاصة في هذا أن الإيطاء، وهو إعادة القافية مرتين، عيب وهو يعد عيبا فظيعا وشنيعا إذا كثر في القصيدة الواحدة، وهو جائز للشاعر البدوي وغير جائز للشاعر المولد. والأمر مختلف فيه بين الدارسين منهم الخليل بن أحمد، وغيره، وليس هذا موضع تفصيله.

ج – مصطلح الصياغة:

✓ المعاظلة:

لم يرد هذا المصطلح بالصيغة التي كتب بها، وإنما جاء بصيغة الفعل (يعاظل) ولكن المعنى لا يختلف لأن أصل المعنى واحد، وهو التشابك الذي يحدث بين الحيوانات كالكلاب والسباع، والجراد لغاية بيولوجية. يقول ابن منظور في أصل هذا المعنى: «وعاظلت الكلاب معاظلة وعظالا وتعاظلت لزم بعضها فوق بعض في السفاد »[2]؛ ويقول كذلك:« وتعاظلت الجراد إذا تسافدت ... وتعاظلت السباع وتشابكت»[3]. وقد نقل هذا المعنى على المشابهة إلى الاصطلاح فأطلق على ما ينشأ من تعقيد أو تداخل في الكلام يؤدي إلى غموض في معناه ولا يتم التوصل إليه إلا بالبحث والتأويل. وقد ذكر ابن سلام هذا المصطلح في رواية نقلها عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) أنه قال عن زهير بن سلمى: « وكان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع وحشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه»[4]. ومن الملاحظ أن كلمة (يعاظل) جاءت منفية، وهذا يعني أن عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) كان يمدح زهير بن أبي سلمى وينفي عن شعره التداخل أو التعقيد. ولذلك كان شعره واضحا ولا يحتاج إلى أن تبذل فيه جهود لفهمه. ولا يبعد هذا عن الحقيقة

---

(1) المصدر نفسه جـ1/ ص 72 .

(2) ابن منظور: المصدر السابق مادة (عظل) .

(3) المصدر نفسه مادة (عظل) .

(4) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1/ ص 63 .

التي كان يعيشها زهير مع شعره، فقد كان يقول القصيدة الواحدة ثم يبقيها حولا كاملا مراجعتها وإدخال التعديلات عليها. ولذلك سميت قصائده (الحوليات) أو (المنقحات).

د- مصطلح مراتب الشعراء:

✓ الشاعر السابق:

هذا مصطلح مركب من كلمتين الأولى هي الشاعر والثانية هي السابق، وهي صفة للأولى، ولا خصوصية لها في الأصل لأنها تفيد عموم الدلالة، غير أن العرب اطلقوها على آخر الخيل في الرهان. وفي هذا يقول ابن منظور في مادة (سبق): « والعرب تقول للذي يسبق من الخيل سابق وسبوق »[1].

ويبدو أن كلمة السابق قد استمدت من هذا المعنى لاستخدامها في الاصطلاح، وذلك لوجود مشابهة واضحة ومباشرة بينهما، لأن الشاعر السابق هو الذي يدخل مع غيره من الشعراء في السباق ويتفوق عليهم ولو جزئيا. ويتضح لنا هذا مما نقله ابن سلام عن العلاء بن حريز العنبري . حيث قال:« الأخطل إذا يجيء سابقا فهو سُكَّيتٌ. والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا، فهو بمنزلة المصلي. وجرير يجيء سابقا وسكيتا ومصليا »[2].

وقد شرح ابن سلام هذا الحكم بقوله: « وتأويل قوله: أن للأخطل خمسا أو ستا أو سبعا طوالا روائع غررا جيادا، هو بهن سابق»[3]. فالشاعر السابق- في ضوء هذا التوضيح- هو الذي يتفوق جزئيا على الشعراء المتسابقين معه، بقصائد طويلة تمتاز بالجودة الفائقة، ويتراوح عددها ما بين خمسة وسبعة. وصفة السابق لا تختص بالأخطل وحده، وإنما يشاركه فيها جرير لأن ابن سلام قال عنه: «وجرير له روائع هو بهن سابق»[4]، ويعد هذا تفسيرا لقول العلاء بن حريز العنبري السابق. وفي هذا المعنى تبدو لنا خصوصية دلالة المصطلح. فإذا قلنا الشاعر السابق، فإن ذهننا ينصرف مباشرة إلى المفهوم التي ذكرناه له. والمصطلح كما يبدو لنا مستمد من البيئة البدوية ومن فصيلة الخيل على

(1) ابن منظور، المصدر السابق مادة (سبق) .

(2) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1/ ص 375 .

(3) المصدر نفسه جـ1 / ص 375 .

(4) المصدر نفسه جـ1 /ص 375 .

وجه التحديد، ومن الصفة التي تكتسبها من السباق في الرهان. وهذا يفيدنا في أن العرب ما زالوا في القرن الثالث الهجري، وهو عصر ابن سلام، يستمدون مصطلحاتهم النقدية من البيئة البدوية. هذا بالإضافة إلى أن مقياس الكم وهو يتمثل في عدد القصائد إلى جانب مقياس الجودة كانا يتدخلان في الحكم على الشعراء، إلى جانب مقاييس أخرى ليس هذا مكان تفصيلها.

✓ **الشاعر المصلي:**

أما المصلي فهو صفة لمشاعر، ومعناه في اللغة (الذي يجيء بعد السابق)[1] من الخيل في السباق. وقيل « سمي مصليا لأنه يجيء ورأسه على صلا السابق»[2]، ولا خلاف بين هذا المعنى وبين الأول إلا في التفاصيل الدقيقة لأن المحصلة النهائية هي أن المرتبة التي يحتلها المصلي هي الثانية في سباق الخيل. ومن الواضح أن المعنى الاصطلاحي قد أخذ من هذا المعنى لما فيها من المشابهة. فالشاعر المصلي هو الذي يأتي في المرتبة الوسط فلا هو بالسابق، ولا هو بالسكيت الذي يأتي في المرتبة الأخيرة في سباق الخيل. وهذا ينطبق على الفرزدق لأنه وضع في منطقة وسط بين الأخطل الذي يكون سكيتا وجرير الذي يكون سابقا كما جاء في ترتيب العلاء بن حريز العنبري في الرواية التي نقلها عنه ابن سلام، وجاء فيها: «الأخطل إذا لم يجيء سابقا فهو سُكَّيتٌ. والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا، فهو بمنزلة المصلي»[3]. ولكن هذا النص لا يحدد الصفات أو المقاييس التي تؤهله لأن يكون مصليا. وهنا نجد ابن سلام يتدخل ليشرح هذه الصفات أو المقاييس بقوله:

«وتأويله قوله : أن للأخطل خمسا أو ستا أو سبعا طوالا روائع غررا جيادا، هو بمن سابق، وسائر شعره دون أشعارهما، فهو يأتي فيما بقي بمنزلة السكيت... ويقال إن الفرزدق دونه في هذا الروائع، وفوقه في بقية شعره، فهو كالمصلي أبدا»[4].

---

(1) ابن منظور: المصدر السابق مادة (صلا) .

(2) المصدر نفسه مادة (صلا).

(3) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1/ ص 375 .

(4) المصدر نفسه جـ1/ ص 375 .

وعلى هذا فالشاعر المصلي هو الذي قال قصائد أقل جودة من القصائد التي قالها الأخطل وهي تنحصر فيما بين خمسة وسبعة، وكان قد استحق بها أن يكون سابقا كما مر معنا. والجدير بالإشارة هنا أن هذه المرتبة لا تخص الفرزدق وحده، وإنما يشاركه فيها جرير، فهو يأتي في المراتب الثلاث كما جاء في بقية نص العلاء بن حريز العنبري السابق وهو« وجرير يجيء سابقا، وسكيتا ومصليا »[1]، وذلك تبعا لمستويات شعره التي حددها ابن سلام بقوله: « وجرير له روائع هو بهن سابق، وأوساط هو بهن مصل، وسفسافات هو بهن سكيت»[2].

✓ **الشاعر السكيت:**

ما يهمنا هنا في هذا المصطلح المركب هو (السكيت) بتخفيف الكاف وتشديدها كما جاء في مادة (سكت) في لسان العرب. ومعناه: « آخر الخيل في السباق »[3]، أو « الذي يجيء في آخر الخلبة »[4].

ويبدو أن السكيت في الاصطلاح قد استمد معناه من هذا المعنى وذلك لوجود مشابهة واضحة بين المعنيين: اللغوي، والاصطلاحي. فالسكيت في الاصطلاح هو الشاعر الذي يتسابق مع غيره من الشعراء ويكون ترتيبه الأخير، وذلك تبعا لمستوى شعره، ولنا في ما قاله العلاء بن حريز العنبري، ما يوضح هذا، وجاء فيه: « الأخطل إذا لم يجيء سابقا فهو سكيت. والفرزدق لا يجيء سابقا ولا سكيتا، فهو كالمصلي أبدا. وجرير يجيء سابقا وسكيتا ومصليا »[5] ولكن ما جاء في هذا لا يحدد بدقة معيار الحكم على الشاعر السُّكَّيتْ ضمن الثلاثة المذكورين، ولذلك ذهب ابن سلام يشرح هذا الحكم بقوله:

---

(1) المصدر نفسه جـ1 /ص 375.

(2) المصدر نفسه جـ1/ ص 375 .

(3) ابن منظور، المصدر السابق مادة (سكت) .

(4) المصدر نفسه مادة (سكت) .

(5) ابن سلام الجمحي: المصدر السابق جـ1 / ص 375 .

«تأويل قوله: أن للأخطل خمسا أو ستا أو سبعا طوالا روائع غرراً جياداً، هو بمن سابق. وسائر شعره دون أشعارهما فهو فيما بقي بمنزلة السُكَّيتْ »[1].

وفي هذا الشرح نتعرف على أن شعر الأخطل ينقسم إلى قسمين: منه ما هو جيد بل بالغ الجودة. ومنه ما هو ضعيف. والأول يتفوق به على زميله: الفرزدق، والثاني ضعيف لا يلتقي فيه إلا مع زميله: جرير في بعض شعره. وعلى هذا فالشاعر السُكَّيتْ هو من كانت مرتبته الأخيرة بسبب ضعف جزء من شعره، وليس ضعيفا في كل شعره. والخلاصة التالية توضح أكثر مراتب الشعراء السابقين من خلال هذه الرسوم:

و- مراتب الشعراء:

1. الشاعر -السابق
2. الشاعر -المصلي
3. الشاعر -السكيت

- سابقـــا

- الأخطل : يكون سكيتا
- الفرزدق: يكون مصليا
- جرير: يكون

1. سابقـا
2. مصليا
3. ج- سكيتا

(1) المصدر نفسه جـ1 /ص 375.

الخاتمـــــــة:

لعل الغاية التي كنا نتوخاها من خلال دراستنا وتحليلنا لهذه المصطلحات النقدية في هذا السفر، قد اتضحت بصورة عملية أكثر، حيث تمكنا من التعرف على مفاهيمها بطريقة لم تكن واضحة من قبل. وهذا يؤكد على ضرورة الاستمرار في عرض المزيد منها وبالمنهج الذي اقترحناه لها.

وإذا كان ما عرضناه قد حقق بعض الفائدة في الدراسة الدلالية للمصطلحات، فإن الفائدة الأكثر أهمية، سوف تستكمل عندما نأتي على دراسة جميع المصطلحات في الكتاب. وبذلك نكون قد وضعنا اللبنة الأولى في إنشاء المعجم التاريخي للغة العربية بأول كتاب في تاريخ النقد العربي القديم.

وكما لاحظنا، فإن هذا العمل ينطوي على قدر من الصعوبة، ولعل أكثر هذه الصعوبة هي صعوبة الإمساك بدلالة المصطلح من خلال السياقات التي ورد فيها في ضوء ذلك التعدد في دلالته واختلافها أحيانا من سياق إلى آخر. ويعد هذا مخالفة للعرف الاصطلاحي، وللقوانين التي تحكمه، ولكن الأساس في هذا يعود إلى أن طبيعة المرحلة التي نشأ فيها المصطلح، وهي مرحلة التأسيس للعلوم والمعارف، والمفاهيم، غالبا ما تترك آثارها السلبية في عملية تشكله وتحديد مدلوله على نحو دقيق، وبخاصة في غياب هيئة ضابطة لهذه العملية كما هو الحال في مجامع اللغة العربية الآن.

وعلى الرغم مما ينجر عن هذا التعدد من سلبيات منها عدم الدقة في مفهوم المصطلح، فإن مما لوحظ على العربي في صياغة مصطلحه، أنه كان يعتمد على الاشتقاق، وفي أحيان كثيرة يستمد هذا المصطلح من البيئة البدوية، ولم يكن يلجأ إلى استمداده من البيئات الأجنبية، كما هو حاصل اليوم، رغم انفتاحه عليها. وهذا يعني أنه كان يعتز بلغته وبعروبته، ويتعصب لهما أكثر.